الحياة الطيّبة
السنة ١٥
العدد ٢٤
شتاء ٢٠١٢ م
أبحاث ودراسات

المبادئ التربوية في نهج البلاغة

الحاجة أميرة برغل[١]

مدخل:

إنّ لكلّ تربية غاية، والغاية الأساس للتربية في الإسلام يمكن إيجازها بـ «**تحقيق العبودية لله في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية**»[٢].

ويتلمّس الباحث في النصوص المتعلّقة بالجانب التربوي في كتاب نهج البلاغة، مدى تأكيد الإمام علي عليه السلام على هذه الغاية في نهجه، حتى لا تكاد تخلو خطبة، بما في ذلك الخطب السياسية والعسكرية، منها.

وحيث إنّه لا بدّ لكلّ نهج تربوي من مبادئ ينطلق منها. فليس بغريب إذاً أن يرتكز الإمام عليه السلام في منهاجه التربوي على مبادئ تنسجم مع هذه الغاية وتؤكدها.

وسوف نسرد تباعاً أهم المبادئ التربوية التي يمكن استفادتها من كتاب نهج البلاغة:

١. مبدأ التربية وفق الفطرة:

المبدأ الأساس الذي يجب أن تراعيه أيّة تربية ناجحة، في نظر أمير

(١) باحثة إسلامية في الشأن التربوي والأسري.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وسوف يرد ما هو المقصود بالعبادة، في طيَّات شرح المبادئ الآتية.

المؤمنين عليه السلام، يكمن في مدى انسجامها مع الفطرة.

والفطرة هي الخلقة الأصلية التي فطر الله الوجود عليها. فكلّما انسجم المنهج التربوي المعتمد مع الفطرة الإنسانية، وأسهم في المحافظة عليها؛ كلّما كان الإنسان أسعد.

ويشير الأمير، إلى هذه الفطرة، في دعائه: «**اللّهم داعي المدحوَّات، وداعم الممسوكات، وجابل القلوب على فطرتها: شقيّها وسعيدها**»[1].

وإن كان قسم كبير من الواقع الفطري يمكن معرفته من خلال اكتشاف قوانين الطبيعة، إلاَّ أنّ قسماً آخر لا يمكن معرفته إلاَّ من خلال خالق الطبيعة نفسه.

لذا كان أهمّ ما أوكل الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام تعريف الناس بخصائص هذه الفطرة؛ وذلك كي يراعوها في سكناتهم وحركاتهم، ولا يخالفوها إلى ما سواها؛ ممّا قد تستهويه نفوسهم، أو ترشدهم إليه عقولهم القاصرة، المحدودة بحدود معارفهم وتجاربهم.

يقول الإمام علي عليه السلام: «**فبعث الله فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه؛ ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيَّ نعمته**»[2].

فالتربية الواقعية عند الإمام علي عليه السلام ليست التربية الموافقة للواقع الاجتماعي المصطنع، بقدر ما هي التربية الموافقة للواقع الفطري السليم.

(١) الرضي، الشريف محمد بن الحسين بن موسى: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحكمه ورسائله)، شرح الشيخ محمد عبده، ط١، بيروت، دار البلاغة، ١٤٠٩هـ.ق/ ١٩٨٩م، خ٧٢، ص١٧٥. جاء في شرح الشيخ محمد عبده في هذا الصدد: «الفطرة أوّل حالات المخلوق التي يكون عليها في بدء وجوده، وهي للإنسان حالته خالياً من الآراء والأهواء والديانات والعقائد. وقوله: شقيّها وسعيدها بدل من القلوب، أي جابل الشقي والسعيد من القلوب على فطرته الأولى، التي هو بها كاسب محض، فحسن اختياره يهديه إلى السعادة، وسوء تصرّفه يضلله في طريق الشقاوة».

(٢) يقول الشيخ محمد عبده في شرحه: «فبعث الله إليه النبيِّين؛ ليطلبوا من الناس أداء ذلك الميثاق؛ أي ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم، وما ينبغي أن تسوقهم إليه غرائزهم». شرح نهج البلاغة، م.س، ص٧٨.

ويقول ابن ميثم البحراني في شرحه: «ليستأدوهم ميثاق فطرته؛ أي ليحثّوهم على أداء ما خلقوا لأجله، وفُطروا عليه من الإقرار بالعبودية لله، ويجذبوهم عمَّا التفتوا إليه من اتّباع الشهوات الباطنة، واقتناء اللذات الوهميَّة الزائفة، وذلك البعث والجذب تارة يكون بتذكيرهم نعمة الله الجسيمة، وتنبيههم على ما أولاهم به من مننه العظيمة». الرضي، الشريف محمد بن الحسين بن موسى: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحكمه ورسائله)، شرح ابن ميثم البحراني، تنقيح وتصحيح يوسف علي منصور، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ.ق/ ١٩٩٢م، ج١، ص١٣٨.

وعليه فإنّ أولى أولويّات الساعي لإرشاد الناس وتربيتهم؛ تكمن في معرفة تلك الفطرة، واعتماد المنهج التربوي الذي يلائمها.

وهو ما دأب عليه الأمير عليه السلام في حياته الشخصية، وفي توجيهاته لأصحابه، كما يتّضح من خلال نصحه لأحد قادة جيشه، حيث يقول له: «**ولا تسر أوّل الليل، فإنّ الله جعله سكناً، وقدّره مقاماً لا ظعناً، فأرح فيه بدنك وروح ظهرك، فإذا وقفت حين ينبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر فَسِرْ على بركة الله**»[١].

٢. مبدأ الإيمان بالغيب:

المبدأ الثاني من مبادئ التربية في فكر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الإيمان المطلق بالغيب.

والغيب هو الله الواحد وما خلقه من عوالم، غير عالم الشهادة، ممّا لا نستطيع إدراكه بحواسنا.

وحيث إنّ الله، في عقيدة الإمام عليه السلام، هو الحقيقة الوحيدة الفاعلة في الوجود[٢]. فهو، وإن كان بالنسبة لنا غيباً، جزءٌ لا يتجزّأ من معادلات عالم الشهادة.

لذا، فكلّ تربية لا تلحظ وجوده وقدرته جلّ وعلا، وما يترتّب عليهما؛ فهي تربية واهمة، وغير واقعيَّة، وأدنى ما يترتَّب عليها أن تؤدّي بصاحبها إلى مجانبة الحقيقة والواقع.

والنهج مليء بالخطب وأبعاضها التي تؤكّد هذا الاعتقاد، وتحثّ الناس على الأخذ به، ولو أردنا استعراض كلّ ما ورد فيه حول هذا الموضوع لطال بنا المقام. ولكنّنا سنكتفي بذكر بعض النماذج التي نأمل أن تفي بالغرض.

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك١٢، ص٣٣٥.

(٢) يقول ابن ميثم البحراني في شرحه لقول الإمام عليه السلام في الخطبة١١٠: «كلمة الإخلاص؛ وهي كلمة التوحيد المستلزمة لنفي الشركاء والأنداد، وهي معنى الإخلاص، ولذلك أضيفت إليه، ووجه فضيلتها؛ كونها فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإنّ العقول السليمة البريئة عن شوائب العلائق البدنيَّة وعوارض التربية شاهدة ومقرَّة بما أخذ عليها من العهد القديم؛ من توحيد صانعها، وبراءته عن الكثرة. وأطلق عليها اسم الفطرة، وإن كانت الفطرة عليها مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه».

ففي الخطبة «٨٦»، يصف الإمام الله عزَّ وجلَّ بأنّه عالم بالسرائر وخبير بالضمائر، وأنّه محيط بكلّ شيء، وله الغلبة والقدرة على كلِّ شيء. وبناءً على ذلك يدعو الناس لعدم التهاون في حفظ كتابه، وتأدية حقوقه: «**فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سُدىً، ولم يدعكم في جهالة ولا عمى...**»[١].

وفي الخطبة «١٠٩»، يُعبّر الإمام عليه السلام عن موقع الله في الوجود بتعبير أدقّ، فيقول: «**كلّ شيء خاشع له، وكلّ شيء قائم به... من تكلَّم سمع نطقه، ومن سكت علم سرّه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه**»[٢]. ولا يخفى كم تعني هذه الأوصاف من الدلالة على حضور الله الفاعل في عالم الوجود. لذا يُلحّ على أصحابه في التوكُّل على الله، وطلب الحاجات منه، وأن لا يخدعهم عدم رؤيته؛ من توهّم عدم قدرته، فيقول عليه السلام: «**واعلموا عباد الله أنّه لم يخلقكم عبثاً. ولم يُرسلكم هملاً.... فاستفتحوه، واستنصحوه واطلبوا إليه واستمنحوه. فما قطعكم عنه حجاب، ولا أغلق عنكم دونه باب. وإنّه لبكلّ مكان، وفي كلِّ حين وأوان، ومع كلِّ إنس وجان**»[٣].

ولم يكن اعتقاد الإمام عليه السلام هذا نظرياً فقط، بل مارسه بالفعل في حياته. وليس أدلّ على ذلك من اعتماده على هذا المبدأ في نصيحته التي أسداها للخليفة الثاني بعدم الخروج بنفسه لقتال الفرس، إذ إنَّ الانتصار على الأعداء في نظره ليس منوطاً بكثرة المقاتلين؛ بقدر ما هو منوط بصدق النيَّة والإخلاص إلى الله تعالى. يقول عليه السلام: «**إنَّ هذا الأمر (يعني الإسلام) لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلَّة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعدَّه وأمدَّه، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع، ونحن**

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: «لقد عَلِمَ السرائر، وخبر الضمائر. له الإحاطة بكلّ شيء، والغلبة لكلّ شيء، والقوّة على كلّ شيء... فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه...». يُراجع: عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ٨٦، ص٢٠٤.

(٢) م.ن، خ١٠٩، ص٢٦٤.

(٣) م.ن، خ١٩٥، ص٤٥١.

على موعود من الله، والله منجزٌ وعده وناصر جنده... فأمّا ما ذكرت من مسيرة القوم إلى قتال المسلمين فإنّ الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنّما كنّا نقاتل بالنصرة والمعونة»[١].

والإيمان المطلق بالغيب يقتضي إلى جانب التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ، تمام التسليم والطاعة له سبحانه. لذا ليس بغريب أن يكون الموضوع الرئيس للإمام عليه السلام في النهج هو «**التقوى**».

والتقوى في نهج البلاغة ليست الخوف، وتجنُّب الناس، والإنـزواء عن المجتمع، بل هي في نظر الإمـام، بحسب تعبير الشهيد مرتضى مطهّري قدس سره: «**قوّة روحية تتولّد للإنسان من التمرين العملي الذي يحصل من الحذر العقلي والمنطقي من الذنوب**»[٢].

فالمؤمن بوجود الله وقدرته، وبما أخبر عنه من موت وحساب وجنَّة ونار، أقلّ ما ينبغي عليه أن يتَّقي غضبه، ويحذر عقابه؛ بإطاعة أوامره، وترك نواهيه.

ويرى الإمام أنَّ التربية التي تقوم على التقوى لا تكبّل الإنسان ولا تقيّده، بل على العكس من ذلك، تطلق قواه إلى أبعد مدى؛ لأنّها:

أ- تهبه البصيرة النيِّرة والرؤية الواضحة:

كما يتّضح من قوله عليه السلام: «**واعلموا عباد الله، أنَّ التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، ولا يُحرز من لجأ. وبالتقوى تُقطع حُمَةُ الخطايا، وباليقين تُدرك الغاية القصوى**»[٣].

وقوله عليه السلام: «**فإنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم،**

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٤٦، ص٣٢٠.
(٢) مطهري، مرتضى: في رحاب نهج البلاغة، ترجمة هادي اليوسفي، لاط، بيروت، دار التبليغ الإسلامي، ١٣٩٨هـ.ق/ ١٩٧٨م، ص١٥٢-١٥٥.
(٣) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ ١٥٧، ص٣٤٢.

وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشا أبصاركم...»[١].

وقوله عليه السلام: «**فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق، فتلجلج في صدره حتى تخرج، فتسكن إلى صوابها في صدر المؤمن**»[٢]. ونفهم من هذا القول اعتقاد الإمام بأنّ الفاقد للتقوى لا يستطيع الاستفادة كما يجب ممّا يُكشف له من علوم وحقائق.

ب- تحرّره من أسر الهوى، وتملُّكه زمام نفسه:

من أبلغ ما ورد عن الإمام عليه السلام في هذا المجال قوله عليه السلام: «**ذمَّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم. إنَّ من صرحت له العبر عمَّا بين يديه من المَثُلات؛ حجزته التَّقوى عن تقحُّم الشُّبهات....ألا وإنَّ الخطايا خيلٌ شمس حمل عليها أهلها، وخُلعت لجُمها فتقحَّمت بهم في النار... ألا وإنَّ التقوى مطايا ذلُلُ، حُمل عليها أهلها، وأعطوا أزمّتها؛ فأوردتهم الجنَّة**»[٣].

يُعلق الشهيد مطهري قدس سره على هذه الخطبة قائلاً: «**إنَّ من لوازم التقوى قوّة الإرادة وامتلاك الشخصية المختارة، كراكب ماهر على فرس مدرَّب، يسير به الناحية التي يختارها بكل اقتدار وسلطة، فيطيعه الفرس بكلّ يسر**»[٤].

وقوله عليه السلام: «**فإنَّ تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتقٌ من كلّ ملكة، ونجاة من كلِّ هلكة**»[٥].

ج- تَمُدّه بعون الله وتسديده:

كما يتّضح من قوله عليه السلام: «**أوصيكم عباد الله بتقوى الله؛ فإنّها**

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٩٨، ص٤٥٧.
(٢) م.ن، ح٧٩، ص٦٧٨.
(٣) م.ن، خ١٦، ص١٠٢.
(٤) مطهّري، في رحاب نهج البلاغة، م.س، ص١٣٨.
(٥) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ٢٣٠، ص ٥٠٦.

حقّ الله عليكم، والموجبة على الله حقّكم. وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله»[١].

لذا كان عليه السلام حريصاً على أن يربّي عليها أبناءه والصالحين من أتباعه. كما يقول عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «**فإنّي أوصيك بتقوى الله، أي بنيّ، ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، وأيّ سبب أوثق من سبب بينك وبين الله؛ إن أنت أخذت به؟**»[٢].

وكما يأمر ولاته، حيث ورد في عهده لمالك الأشتر: «**... أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتّباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحدٌ إلاّ باتّباعها، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه وتعالى بقلبه ويده ولسانه، فإنّه، جلَّ اسمه، قد تكفَّل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزَّ...**»[٣].

٣. مبدأ الزُهد:

المبدأ الثالث الذي تعتمد عليه التربية عند الإمام عليه السلام هو: مبدأ الزُهد.

فالإيمان بعالمي الغيب والشهادة يقتضي الإيمان بكلتا الحياتين الدنيا والآخرة. لذا فالتربية الناجحة في نظر الإمام عليه السلام هي التي تُعدّ الإنسان للحياتين معاً، وليس للحياة الدنيا فقط.

وحيث إنّ نسبة الحياة الدنيا المحدودة إلى الحياة الآخرة اللامتناهية لا تساوي شيئاً يُذكر، تَوَجّب على العاقل أن يُقدِّم، في حال تعارضهما، الباقية منهما على الفانية.

فالمقصود بالزُّهد إذاً، ليس احتقار الدُّنيا وعدم الاهتمام بها[٤]، بل

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٩١، ص٤١٩.
(٢) م.ن، ك٣١، ص٥٥٨.
(٣) م.ن، ك٥٣، ص ٦٠٤.
(٤) أوضح الإمام عليه السلام ذلك، في قوله لمن ترك السعي في طلب الرزق وانقطع للعبادة: «يا عُديّ نفسه. لقد استهام بك الخبيث. أما رحمت أهلك وولدك! أترى الله أحلَّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها. أنت أهون على الله من ذلك». يُراجع: عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ٢٠٩، ص٤٧٠.

عدم الانغرار بها، والتعامل معها على قدر قيمتها الحقيقية.

نستنتج ذلك من كلام الإمام عليه السلام لأبي ذر[١] عند نفيه إلى الرِّبذة. فقال له: «**...فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عمَّا منعوك! وستعلم من الرابح غداً...**»[٢]. ومن قوله عليه السلام في موضع آخر لبعض أصحابه: «**... واعملوا للجنّة عملها: فإنّ الدنيا لم تُخلق لكم دار مقام، بل خُلقت لكم مجازاً؛ لتزوّدوا منها الأعمال إلى دار القرار. فكونوا على أوفاز... وقرِّبوا الظُهور للزِيال...**»[٣]. ومن أوضح ما قاله الإمام عليه السلام في هذا المعنى: «**إنّما الدنيا منتهى بَصَر الأعمى، ولا يُبصر ممَّا وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنَّ الدَار وراءَها. فالبصيرة منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزوِّد والأعمى لها متزوَّد**»[٤].

ولقد عرَّف الإمام عليه السلام الزُهد تعريفاً عملياً، في موردين من النَهج:

١. في الخطبة «٧٩»، بقوله عليه السلام: «**أيّها النَّاس! الزُهد: قصر الأمل، والشكر عند النعم، والورع عند المحارم...**»[٥].

٢. في الحكمة «٤٣٤»، بقوله عليه السلام: «**الزُهد بين كلمتين من القرآن، قال سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي؛ فقد أخذ الزُهد بطرفيه**»[٦].

ويعتبر الإمام أنَّ الانطلاق من مبدأ الزُهد، بهذا المعنى، في التربية أساس مهم على الصعيد الفردي والاجتماعي.

(١) هو الصحابي الجليل «أبو ذرّ الغفاري» الذي نفاه الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى منطقة الربذة الصحراوية، قرب المدينة المنوّرة، تخلّصاً من انتقاداته الكثيرة على الكيفية التي تعامل بها كلٌ من عثمان وعمَّاله في بيت مال المسلمين.

(٢) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٣٠، ص٣٠٤.

(٣) م.ن، خ١٣٢، ص٣٠٦. ورد في الشرح: الوفز= العجلة، وجمعه أوفاز؛ أي كونوا منها على استعجال. والظهور = ظهور المطايا؛ أي أحضروها لفراق الدنيا.

(٤) م.ن، خ١٣٣، ص ٣٠٧.

(٥) م.ن، خ٨١، ص١٨٥.

(٦) م.ن، ح٤٣٤، ص٧٦٢.

فعلى الصعيد الفردي يمكّن الزُهد الإنسان من الربح في الدارين، كما يقول الإمام عليه السلام في الحكمة «٢٦٩»: «**الناس في الدنيا عاملان: عامل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنيا عن آخرته، يخشى على من يخلفه الفقر، ويأمنه على نفسه، فيغني عمره في منفعة غيره. وعامل عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له في الدنيا بغير عمل فأحرز الحظّين معاً، وملك الدارين جميعاً، فأصبح وجيهاً عند الله، لا يسأل الله حاجة فيمنعه**»[١].

ويقول عليه السلام: «**من زهد في الدنيا استهان بالمصيبات**»[٢]، و«**ازهد في الدنيا يبصّرك الله عوراتها**»[٣]، و«**الزهد ثروة**»[٤].

أمّا على الصعيد الاجتماعي فالزُهد، كالتقوى؛ منبع للكثير من الخصال الأخلاقية، كالإيثار والتواضع ومواساة الفقراء، التي تمكّن الناس من تحقيق التكافل الاجتماعي، ورفض الظلم، وعدم الارتهان للحكّام. وكتاب الإمام عليه السلام إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف[٥] الذي يؤنّبه فيه على وليمة حضرها، ويدعوه إلى الزُهد والتأسّي بالزاهدين؛ من أدلّ كلام الإمام عليه السلام عن العلاقة بين الزُهد والاستقرار الاجتماعي[٦]. ويرد هذا المعنى أيضاً في كتابه الشهير المعروف باسم عهد الأشتر[٧].

٤. مبدأ التزكية الروحية:

من المبادئ التي تقوم عليها، أيضاً، التربية عند الإمام عليه السلام: «**مبدأ**

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح٢٧١، ص٧٢٥.
(٢) م.ن، ح٣٠، ص٦٦٧.
(٣) م.ن، خ٣٩٠، ص ٧٥٣.
(٤) م.ن، ح٣،ص٦٦٣.
(٥) م.ن، ك٤٥، ص٥٩١.
(٦) تأمّل ببليغ قوله عليه السلام: «أأقنع من نفسي بأن يُقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوةً لهم في جُشُوبة العيش. فما خُلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة همُّها عَلفها، أو المُرسلة(غير المربوطة) شُغلها تقمُّمُها(الأكل من القمامة)».
(٧) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٥٣، ص٦٠٤.

التزكية»، والتزكية لغة تعني «**التنمية**»[١]؛ وعكسها «**التدسيَة**»[٢]. يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٣].

فالتربية التي يريدها الإمام عليه السلام هي تلك التي تساعد الإنسان على تنمية ملكاته النفسية وقواه الأخلاقية حتى تصل إلى أبعد مدى من الصلاح يمكن أن تصل إليه. ونجد في قوله عليه السلام: «**ألا حرٌّ يدع هذه اللماظة[٤] لأهلها؟ إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة، فلا تبيعوها إلاّ بها**»[٥]؛ إشارة واضحة لعظم شأن النفس البشرية، وإلى ضرورة تأهيلها؛ لاستحقاق الجنّة[٦]، وهو ما لا يمكن تحصيله إلاّ بتزكية النفس.

وتزكية النفس، حتى تستحقّ الجنّة؛ تتطلّب تنمية شاملة ومستمرّة. لذا، في وصفه للمتّقين، يعتبر الإمام عليه السلام أنّ من أهمّ فضائلهم؛ انشغالهم الدائم بتزكية أنفسهم، فيقول عليه السلام: «**لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير. فهم لأنفسهم متّهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زُكّي أحد خاف ممّا يُقال له. فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي من نفسي...**»[٧].

والنفس في نظر الإمام عليه السلام وعاء قابل للاتّساع: «**كلّ وعاء يضيق بما جُعل فيه إلاّ وعاء العلم فإنّه يتّسع**»[٨]، ولا عذر يوجب قطع العلم: «**قطع العلم عذر المتعلّلين**»[٩]، كما ولا جهل يبرّر الحياء من السؤال: «**ولا يستحينَّ**

(١) الإفريقي، ابن منظور: لسان العرب، علّق عليه علي شرّي، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ.ق/ ١٩٨٨م، مادة زكا، ج٦، ص٦٤.

(٢) دسى: نقيض نما وزكا. ودسى نفسه: أخملها وأخسّ حظّها. يُراجع: مجموعة من الباحثين: المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٢، بيروت، دار المشرق، لات، ص٢١٥.

(٣) الشمس: ٧-١٠.

(٤) اللماظة: بقية الطعام في الفم، ويريد بها الدُنيا. والمعنى: أي لا يوجد حرٌّ يترك هذا الشيء الدنيء لأهله... عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ص٧٦٦، الحاشية.

(٥) م.ن، ح٤٥٠، ص٦٦٧.

(٦) يُراجع: م.ن، ص٧٦٦؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، م.س، ج٢، ص٦٤٢.

(٧) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٩٣، ص٤٤٦.

(٨) م.ن، ح٢٠٦، ص٧٠٧.

(٩) م.ن، ح٢٨٦، ص٧٢.

أحدٌ إذا سُئلَ عمَّا لا يعلم أن يقول لا أعلم. ولا يستحينَّ أحدٌ إذا لم يعلم الشيء أن يتعلَّمه»[١]. إذ إنّ كلّ علم في نظر الإمام عليه السلام يتبعه أدب، وكلّ أدب حلَّة جديدة: «**... العلم وراثة كريمة، والآداب حُللٌ مجدّدة...**»[٢].

فهذا هو مبدأ التزكية الذي يريد الإمام عليه السلام من أصحابه أن يعتبروه من أولويَّاتهم، فيقول لهم ناصحاً: «**فكأنّكم بالساعة تحدوكم حَدْو الزاجر بشوْله**[٣]. **فمن شغل نفسه بغير نفسه تحيَّر في الظلمات، وارتبك في الهلكات، ومُرَّت به شياطينُهُ في طغيانه، وزُيِّنت له سَيّئ أعماله**»[٤].

٥. مبدأ الاستخلاف الإنساني:

من المبادئ الأساسية التي يرتكز عليها فكر الإمام عليه السلام التربوي: مبدأ الاستخلاف الإنساني.

ويقوم هذا المبدأ على الاعتقاد بأنّ الإنسان لم يُخلق عبثاً، ولم يُترك سُدى، بل خُلِقَ لدورٍ عظيم وخطير في آن، ألا وهو عمارة الأرض وخلافة الله فيها. فيقول عليه السلام محدّثاً عن آدم عليه السلام: «**فأهبطه بعد التوبة؛ ليَعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجّة به على عباده...**»[٥] ويتّضح من هذا القول أنّ عمارة الأرض هي سرّ عظمة الإنسان وتفضُّله على بقية خلق الله.

إلاَّ أنَّ هذه العمارة للأرض ليست حبّاً في الحياة الدنيا، وإنّما امتثالاً لأمر الله تعالى، وخدمة لعباده، ورغبة في ثوابه: «**أيها الذام للدنيا...إنَّ الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدّقها، ودار غنىً لمن تزوَّد منها**[٦]**، ودار موعظة لمن اتَّعظ بها. مسجد أحبَّاء الله، ومصلَّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله...**»[٧].

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح٨٢، ص٦٧٨.
(٢) م.ن، ح٤، ص٦٦٣.
(٣) الزاجر بشوْله: سائق الإبل الحامل.
(٤) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ ١٥٧، ص٣٤٢.
(٥) م.ن، خ١٥٧، ص٣٤٢.
(٦) تزوَّد منها: أخذ منها زاد الآخرة. عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ص٦٩٢.
(٧) م.ن، ح١٣١، ص٦٩٢.

لذا وجب أن تتمّ بالشكل الذي يريده الله، وأن تُبنى العلاقات الفردية والاجتماعية على أساس تعاليم دين الله: «**... لم تكن بيعتكم إيَّاي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إنّي أريدكم لله، وأنتم تريدونني لنفسكم... أيّها النَّاس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنَّ الظالم بخزامته، حتى أورده منهل الحقّ، وإن كان كارهاً**»[١].

وهو ما يتطلّب تربية تهدف إلى الاعتناء بتنمية الشخصية الإنسانية في جوانبها الماديَّة بقدر اعتنائه بتنميتها في جوانبها الرّوحيَّة. وهذا هو سرّ ارتباط التقوى عند الإمام عليه السلام بالعمل، وارتباط التزكية بالعلم، وارتباط العبادة بالجهاد: «**وإنّي لمن قوم لا تأخذهم في الله لومَةُ لائم، سيماهم سيما الصادِّقين، وكلامهم كلام الأبرار...لا يستكبرون، ولا يعْلمون، ولا يغُلُّون، ولا يفسدون. قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل**»[٢].

وقد وردت عن الإمام عليه السلام حكمٌ كثيرة، يُستفاد منها: ضرورة الجدّ، والاجتهاد، وعدم الخنوع، والتواكل، كقوله عليه السلام: «**لا يمنع الذليل، ولا يُدرك الحقّ؛ إلاَّ بالجدّ**»[٣].

وقوله عليه السلام: «**الولايات مضامير الرجال**»[٤]؛ وهو دعوة صريحة للانخراط في المجتمع، وعدم الزهد في التصدّي للقيادة والحكم.

ونستنتج من ذلك، أنَّ لهذا المبدأ أثراً كبيراً في النهج التربوي. ففرقٌ كبير بين عمل في الدنيا؛ من أجل الدّنيا، وعمل في الدنيا من أجل الآخرة.

ومن أهمّ ما يميِّز التربية التي تنطلق من هذا المبدأ، أنَّها:

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٣٦، ص٣١٠.
(٢) م.ن، خ١٩٢، ص٤٤٤.
(٣) م.ن، خ٢٩، ص ١٢٨.
(٤) م.ن، ح٤٣٦، ص ٧٦٣.

أ- تجمع بين العمل للدنيا، والعمل للآخرة:

يقول الإمام علي عليه السلام: «**واعلموا عباد الله أنَّ المتَّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت...**»[١].

ب-وتجمع بين السياسة والأخلاق:

كما أكَّد على ذلك الإمام عليه السلام في وصاياه لولاته على الأمصار[٢]، وأهمّها: عهده لمالك الأشتر؛ وممّا جاء فيه: «**ثمَّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيَّتك في نفسك ممَّن لا تضيق به الأمور... وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج، وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشّف الأمور، وأصرمهم عند اتّضاح الحكم...**»[٣]. وكذلك في سلوكه عليه السلام مع أعدائه: «**والله ما معاوية بأدهى الناس، ولكن لكلّ غدرة فجرة، ولكلِّ فجرةٌ كفرةٌ، ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة. والله ما أستغفلُ بالمكيدة، ولا أُستَغمَزُ بالشديدة**»[٤].

ج-وبين بأس المقاتل وسماحة الناسك:

وقد برز ذلك من خلال تحديد الإمام عليه السلام لأهداف الحروب التي خاضها: «**فو الله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة؛ فتهتدي بي، وتعشوا إلى ضوئي، وذلك أحبُّ إليَّ من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوءُ بآثامها**»[٥].

وفي السلوك الذي يريد أن يتعامل به مع عدوّه، إذا انتصر عليه: «**اللّهم ... إن أظهرتنا على عدوّنا، فجنِّبنا البغي، وسدِّدنا للحقّ**»[٦].

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٢٧، ص٥٤٧.
(٢) يُراجع: م.ن، ك ٢٦، ص٥٤٧؛ ك ٢٧، ص٥٤٧؛ ك٣٣، ص ٥٧٧؛ ك٢٤٠، ص٥٨٤؛ ك٤١، ص٥٨٥.
(٣) م.ن، ك٥٣، ص٦٠٤.
(٤) م.ن، خ٢٠٠، ص٤٦٤.
(٥) م.ن، خ٥٥، ص١٥٩.
(٦) م.ن، خ١٧١، ص٣٧٣.

وفي توجيهاته عليه السلام لقادة جيوشه؛ في أخلاق الحرب، وطريقة التعامل مع الحرث والنسل أثناء الحروب[١].

٦- مبدأ الحرّيَّة والاختيار الإنسانيين:

من المبادئ التربوية الَّتي أكَّدها الإمام عليه السلام في خطبه وعظاته: مبدأ الحرّيَّة والاختيار الإنسانيين.

وقد يتصوَّر البعض أنَّ تسمية هذا المبدأ بالحرّيَّة يتنافى مع غاية التربية في الإسلام؛ أي «**بالعبودية لله عزَّ وجلَّ**». إلاَّ أنَّ نظرة متأمّلة لأقوال الإمام عليه السلام تظهر ترابطاً عميقاً بين الأمرين.

إذ لا حرّيَّة واقعيَّة، في نظر الإمام عليه السلام، إلاَّ لمن أقرَّ بالعبوديَّة لله قولاً وفعلاً، وتحرَّر من أسر العادات والتقاليد والأشخاص، وقبل كلّ شيء من أسر هوى نفسه[٢]. وليس أدلّ على ذلك من قوله عليه السلام: «**لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً**»[٣].

والحرّيَّة ضرورة من ضرورات الاستخلاف، فلا رأي صائب لمن لا يتمتّع بها: «**احذر الكلام في مجالس الخوف، فإنَّ الخوف يُذهل العقل الذي منه تستمدّ، ويشغله بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي تروم نصرته**»[٤].

وليس أدلّ على عمق إيمان الإمام عليه السلام بهذا المبدأ، من دعوته لإيمان بالله مرتكز على اختيار حرٍّ، وليس بداعي الطمع أو الخوف: «**إنَّ قوماً عبدوا الله رغبةً؛ فتلك عبادة التجّار، وإنَّ قوماً عبدوا الله رهبةً؛ فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا الله شكراً؛ فتلك عبادة الأحرار**»[٥].

ومِن رفضه لتفسير القضاء والقدر على طريقة الجبريَّة، كما ورد في

(١) يُراجع: عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٢١، ص٥٣٣؛ ك١٤، ص٥٣٤؛ ك٥٠، ص٦٠٠.
(٢) من كلام الإمام عليه السلام في نهج البلاغة: «كم من عقل أمير تحت هوى أسير».
(٣) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٣١، ص٥٧٠.
(٤) م.ن، ك٣١، ص٥٧٠.
(٥) م.ن، ح ٢٣٩،ص٧١٤.

ردِّه على أحد أهل الشام، مصحّحاً مفهومه عن القضاء والقدرة، بعد معركة صفّين: «**ويحك لعلّك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً؛ ولو كان ذلك كذلك؛ لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إنَّ سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً**»[١].

ومَن كانت هذه عقيدته مع ربّ العباد، فلا بدَّ أن يرفض كلّ علاقة مبنيَّة على الخضوع والذلّ بين العباد: «**ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم؛ الذين تكبَّروا عن حسبهم، وترفَّعوا فوق نسبهم...**»[٢]. حتَّى ولو كانت تلك العلاقة معه هو، فلقد قال عليه السلام لأحد أصحابه حين تبعه وهو راكب على فرسه: «**ارجع فإنَّ مشي مثلك مع مثلي؛ فتنة للوالي، ومذلَّة للمؤمن**»[٣].

وانطلاقاً من هذا المبدأ -أيضاً- انطلق الإمام عليه السلام في تنظيره لأهمّيّة الأخذ بمبدأ الجهاد في حركة الصراع مع الظالمين والمستبدّين، فيقول عليه السلام: «**المنيَّة ولا الدنيَّة، والتقلّل ولا التوسل**»[٤]. ويقول عليه السلام: «**... فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**»[٥].

ولقد عبَّر عن ذلك، بشكل أكثر وضوحاً، في خطبته الشهيرة حول الجهاد[٦]، ووصايا لابنه الحسن[٧] عليه السلام، ووصفه للمتّقين[٨].

٧- مبدأ احترام العقل والحثّ على التعقّل:

لم يمنع اعتقاد الإمام عليه السلام الجازم بالغيب من الإيمان بقدرة العقل، وبضرورة تنميته، والاعتماد عليه في تقدير الأمور، واتّخاذ القرارت، والتمييز بين الحقّ والباطل.

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح٧٨، ص٦٧٧.
(٢) م.ن، خ١٩٢، ص٤٢٨.
(٣) م.ن، ح٣٢٤، ص٧٣٧.
(٤) م.ن، ح٣٩٤، ص٧٥٤.
(٥) م.ن، خ٥١، ص١٥٥.
(٦) يُراجع: م.ن، خ٢٧، ص١٢٢.
(٧) يُراجع: م.ن، ك٣١، ص٥٥٧.
(٨) يُراجع: م.ن، خ١٩٣، ص٤٤٤.

ولقد أكَّد الإمام عليه السلام عظيم قيمة العقل في الكثير من خطبه ورسائله ووصاياه وحِكمه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: «**إنَّ أغنى الغنى العقل**»(١)، «**نعوذ بالله من سُبات العقل وقبح الزلل**»(٢)، «**... إنَّ الشقيّ من حُرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة**»(٣).

أمَّا سبب هذا التعظيم للعقل؛ فيعود لكونه أداة معرفة الله، وفهم دينه، واستحقاق ثوابه، وإنجاز خلافته؛ فكما لا عمارة للأرض من دون حرّيَّة؛ فلا عمارة من دون إعمالٍ للعقل.

يقول عليه السلام في وصفه لعباد الله المؤمنين: «**عبادٌ ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكّرون بأيَّام الله، ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلَّة في الفلوات...**»(٤).

وفي خطبة أخرى يفرِّق بين التديُّن المبنيّ على وعي وإدراك، وبين التديُّن المبنيّ على مُجرَّد النقل والسماع، فيقول عليه السلام في وصفه للمتّقين: «**عَقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ودراية، فإنَّ رواة العلم كثير ورعاته قليل**»(٥). وفي موضع آخر يعتبر الإسلام ديناً لا يُقدّره حقَّ قدره؛ إلاَّ ذو لُبٍّ وفهم، فيقول عليه السلام: «**فجعله (أي الإسلام)...فهماً لمن عَقَل، ولبّاً لمن تدبَّر**»(٦).

كما يعتبر الإمام عليه السلام أنَّ ما أعطاه الله للإنسان من حواسّ مختلفة ما هي إلاَّ أدوات؛ ليسخّرها العقل في سبيل التّفهُّم والاعتبار، فيقول: «**ثمَّ منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً؛ ليفهم معتبراً، ويُقصِّر**

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح٣٨، ص٦٧١.
(٢) م.ن، خ ٢٢٤، ص٥٠١.
(٣) م.ن، ك٧٨، ص ٦٥٨.
(٤) م.ن، خ٢٢٢، ص٤٩٤.
(٥) م.ن، خ٢٣٩، ص٥١٦.
(٦) يُراجع: م.ن، خ١٠٦، ص٢٥٧.

مُزْدَجِراً»[١]، ويقول عليه السلام: «**كفاك من عقلك؛ ما أوضح لك سبيل غيك من رشدك**»[٢].

ولفرط إيمانه بضرورة التركيز على هذا المبدأ في التربية، أورد الإمام عليه السلام مظاهر كثيرة للتّعقُّل، ودعا إليها[٣].

واستنكر التعصُّب للرأي وعدم الموضوعيَّة، كقوله عليه السلام: «**خذ الحكمة أنَّى كانت**»[٤]، وقوله عليه السلام: «**الحكمة ضالَّة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النِّفاق**»[٥]، وقوله عليه السلام منتقداً من يعتدّ برأيه: «**... لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكره، ولا يرى أنَّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإنْ أظلم عليه أمراً اكتتم به؛ لما يعلم من جهل نفسه...**»[٦]، وفي موضع آخر: «**ومالي لا أعجب، من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف عندهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، ففزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمّات على آرائهم**»[٧].

كذلك يمكننا استفادة هذا المعنى من الدعوة للتواضع أمام من هم أعلم منَّا، فيقول عليه السلام: «**وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره**»[٨].

ويقول عليه السلام: «**العالم من عرف قدره**»[٩]. ويحذِّر من مخالفة نصيحة ذوي الخبرة فيقول عليه السلام: «**فإنَّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرِّب؛ تورث الحسرة، وتعقب الندامة**»[١٠].

(١) م.ن، خ٨٢، ص١٩٨.
(٢) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح٤١٧، ص٧٥٩.
(٣) كالدعوة إلى التدبُّر والتشاور، وإجالة الرأي والتروّي.
(٤) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح٧٩، ص٦٧٨.
(٥) م.ن، ح٨٠، ص٦٧٨.
(٦) م.ن، خ١٧، ص١٠٩.
(٧) م.ن، خ٨٨، ص٢١٠.
(٨) م.ن، خ١٦، ص١٠٥.
(٩) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٠٣، ص٢٥٢.
(١٠) م.ن، خ٣٥، ص١٣٩.

ومن أجلى مظاهر التعقُّل عند الإمام عليه السلام دعوته إلى التحلِّي بالواقعيَّة والموضوعيَّة، كقوله عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «**وامسك عن طريق؛ إذا خفت ضلالته، فإنَّ الكفَّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال**»(١). وقوله عليه السلام: «**واعلم يقيناً أنَّك لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك وأنَّك في سبيل من كان قبلك فخفّض في الطلب، وأجمل في المكتسب؛ فإنَّ رُبَّ طلبٍ قد جرَّ إلى حرب**»(٢). وكذا قوله عليه السلام: «**.... وإيَّاك واتّكالك على المنى؛ فإنّها بضائع الموتى**»(٣). ومن أجلّ نصائحه في هذا المجال، قوله عليه السلام: «**من أومأ إلى متفاوت خذلته الحِيَل**»(٤)؛ ومعناه من طلب تحصيل المتباعدات؛ بضمّ بعضها إلى بعض، لم ينجح(٥). وقوله عليه السلام: «**وإيَّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التساقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكَّرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، وضع كلّ أمر موضعه، وأوقع كلّ عمل موقعه**»(٦).

إلاَّ أنَّ هذا المقام العظيم هو للعقل الراجح لا المخدوع. ولا يكون راجحاً إلاَّ إذا خرج من أسر الهوى، وسلِم من علائق الدنيا، كما يقول في نصيحته لشريح القاضي: «**... شهد على ذلك العقل؛ إذا خرج من أسر الهوى، وسلِم من علائق الدُّنيا**»(٧)، ولبعض أصحابه: «**رحم الله أمرأً سمع فوعى، ودُعي إلى رشاد فدنا، وأخذ بحجزة هادٍ فنجا...كابر هواه، وكذَّب مناه...**»(٨)، وفي تفسيره لسبب الاختلاف والفتن: «**إنّما بدء وقوع الفتن: أهواء تتبَّع، وأحكام تبتدع**»(٩).

(١) م.ن، ك٣١، ص٩٥٥.
(٢) م.ن، ك٣١، ص٥٧٠.
(٣) م.ن، ك٣١، ص٥٧١.
(٤) م.ن، ح٣٩٨، ص٧٥٥.
(٥) يُراجع: م.ن، ص٧٥٥.
(٦) م.ن، ك٥٣، ص٦٢٨.
(٧) م.ن، ك٣، ص٥٢٤.
(٨) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ٨٦.
(٩) م.ن، خ٥٠، ص١٥٤.

٨- مبدأ اللطف بالخليقة[١]:

بالرغم من الصرامة التي دعا الإمام أصحابه للأخذ بها في مجال تهذيبهم لأنفسهم[٢]، ناصباً لهم من نفسه القدوة: «**ألا وأنَّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه....**»[٣]، إلاَّ أنَّه في مجال التربية كان ينطلق من مبدأ اللطف، ومراعاة تفاوت قدرات البشر.

ولقد تكشّف لنا هذا المبدأ في فكر الإمام عليه السلام من خلال أمور ثلاثة:

أ- تأكيده، في مواضع كثيرة، على رحمة الله ورأفته ولطفه بعباده، وقبوله لأعمالهم؛ بحسب قدراتهم، وستره عليهم، وقبول اعتذارهم. من مثيل قوله عليه السلام في وصية لابنه الحسن عليه السلام: «**واعلم أنَّ الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفَّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يُلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعالجك بالنقمة، ولم يُعيِّرك بالإنابة[٤] ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يُشدِّد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة...**»[٥].

ب- أسلوبه التربويّ مع أولاده وأصحابه؛ ففي وصيّته لابنه الحسن عليه السلام نجده يستعمل أسلوباً يفيض بالحبّ والإشفاق والرحمة: «**فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبّك**؛

(١) آثرنا تسمية المبدأ باللطف انسجاماً مع المصطلحات الإسلامية، ويمكن تسميته مبدأ اليُسر والتسهيل أو الرفق.
(٢) يُراجع: وصفه عليه السلام للمتقين: عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح١٩٣، ص٤٤٤-٤٤٩.
(٣) م.ن، ك٤٥، ص٥٩١.
(٤) بالإنابة: بالرجوع إليه. م.ن، كتاب٣١، ص٥٦٦.
(٥) م.ن، ك٣١، ص٥٦١-٥٦٧.

لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر قد كفاك أهل التّجارب بُغيته وتجربته، فتكون قد كُفيت مؤنة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة...»[١]، وفي دعوته أصحابه للاقتداء به لا يكلّفهم بما كلَّف به نفسه، فيقول عليه السلام في أعقاب وصفه لجهاده لنفسه: «**... ألا إنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفَّة وسداد**»[٢]. وفي علاقة المؤمنين فيما بينهم يطلب منهم أن يعاون قويّهم ضعيفهم، وأن يرفقوا ببعضهم بعضاً؛ حتَّى في مجال العبادة والإيمان، فيقول عليه السلام: «**إنَّما ينبغي لأهل العصمة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم...**»[٣]، ويقول عليه السلام: «**يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنبه؛ فلعلَّه مغفورٌ له، ولا تأمن على نفسك صغيرَ معصيته؛ فلعلَّك معذَّب عليه**»[٤]، ويقول عليه السلام -أيضاً-:«- «**ما كلُّ مفتونٍ يُعاتب...**»[٥]، وطبَّق ذلك عملياً فقال عليه السلام لأصحابه: «**لا تقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طَلَب الحقَّ فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه**»[٦]. ويبرُز هذا المبدأ أكثر ما يبرز في دعوته أصحابه أثناء القتال لمراعاة اختلاف قدراتهم البدنيَّة والنفسية، فيقول عليه السلام: «**وأيّ امرىءٍ منكم أحسَّ من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحدٍ من إخوانه فشلاً؛ فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضّل بها عليه، كما يذُب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله**»[٧].

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٣١،ص٥٦٠.
(٢) م.ن، ك٤٥، ص٥٩١.
(٣) م.ن، خ١٤٠، ص٣١٤.
(٤) م.ن، خ١٤٠، ص٣١٥.
(٥) م.ن، ح١٤، ص٦٦٥،
(٦) م.ن، خ٦١، ص١٦٣.
(٧) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٢٣، ص٢٩٣.

ج- دعوته ولاته للرّفق بضعاف المسلمين وعدم تكليفهم ما لا يطيقون، كما يظهر بوضوح من خلال توجيهاته لعمَّاله على الصدقات والخراج، كقوله عليه السلام: «**واصبروا لحوائجهم؛ فإنَّكم خزَّان الرعيَّة، ووكلاء الأمَّة، وسفراء الأئمّة. ولا تحسموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابَّة يعتملون عليها...**»[١]. ومن خلال توجيهاته لقادة جيشه، كما جاء في وصيّته لمعقل بن قيس الريّاحيّ، حين أنفذه إلى الشام: «**... ولا يحملكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم**»[٢]. ومن خلال عهوده لولاة أمره في المناطق، وأشهرها عهده لمالك الأشتر، فالدارس لهذا العهد يلمس بوضوح دعوة الإمام عليه السلام لمبدأ اللطف بالناس، وحسبنا في ذلك ما ورد بخصوص كيفيَّة إمامة المصلّين، حيث يقول عليه السلام: «**وإذا أقمت صلاتك للناس فلا تكونَنَّ منفِّراً ولا مضيِّعاً؛ فإنَّ في النّاس ما به العلَّة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجَّهني إلى اليمن كيف أصلِّي بهم، فقال: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم؛ وكُن بالمؤمنين رحيماً**»[٣]. أمَّا في غيره فنكتفي بذكر ما ورد عنه في وصيِّته لأحد عمَّاله:«**فاستعن بالله على ما أهمَّك، واخلط الشدَّة بضِغْثٍ[٤] من اللِّين، وارفق ما كان الرفق أرفق...**»[٥].

(١) م.ن، ك٥١، ص٦٠٢. يظهر هذا المعنى أيضاً في: م.ن، كتاب ٢٥، ص٥٤٣.
(٢) م.ن، ك٢١، ص٥٣٣.
(٣) م.ن، ك٢٥، ص٦٢٦.
(٤) بِضغْث: بخلط. والمعنى: يخلط الشدّة باللين.
(٥) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٤٦، ص٥٩٧.

٩- مبدأ الاعتدال:

من المبادئ التربويَّة المهمَّة الَّتي دعا إليها الإمام في نهج البلاغة: مبدأ الاعتدال في الأمور الحياتية جميعها؛ على مستوى الفكر والقول والعمل.

والاعتدال في نظر الإمام عليه السلام قانون الفطرة، يقول عليه السلام: «**لقد عُلّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه؛ وذلك القلب. وله موادٌ من الحكمة، وأضداداً من خلافها. فإن سنح له الرجاء، أذلَّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف...، فكلّ تقصيرٍ وكلُّ إفراط له مُفسد**»(١).

ولقد دعا الإمام عليه السلام أصحابه، في الكثير من توجيهاته وعِظاته، لاعتماد هذا المبدأ في جميع مناحي حياتهم، إن على صعيد الأماني والرغبات، أو على صعيد المشاعر والتوجُّهات، أو على صعيد المواقف والعلاقات، مؤكداً لهم أنَّه: منطلق التعاليم الإلهيَّة: «**ألا وإنَّ شرائع الدين واحدة، وسُبله قاصدة**(٢)، **من أخذ بها لحق، ومن وقف عنها ضلّ وندم**»(٣). ومنهج رسول الله صلى الله عليه وآله: «**سيرته القصد، وسنَّته الرشد**»(٤). ويقول ناعتاً نفسه والأئمَّة من ولِده: «**نحن النمرقة الوسطى**(٥) **بها يلحق التالي، وإليها يرجع الغالي**»(٦). ويصف المتَّقين في خطبته بأنّهم من أهل الاعتدال؛ فيعدِّد من صفاتهم، ما يؤكِّد ذلك، إلى أن يقول عليه السلام: «**من أخذ القصدَ؛ مدوا إليه طريقه، وبشَّروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً؛ ذمّوا إليه الطريق، وحذَّروه من الهلكة...**»(٧).

وممَّا جاء في النهج في هذا المجال، قوله عليه السلام: «**اليمين والشمال**

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ح١٠٩، ص٦٨٥.
(٢) القصد: الاعتدال.
(٣) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٢٠، ص٢٨٧.
(٤) م.ن، خ٩٤، ص٢٤٠.
(٥) الوسادة الوسطى عن: م.ن، ص٦٨٥، الحاشية.
(٦) م.ن، ح١١٠، ص٦٨٥.
(٧) م.ن، خ٢٢٢، ص٤٩٥.

مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادَّة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوَّة. ومنها منقذ السنَّة، وإليها مصير العاقبة»[١]. وقوله عليه السلام: **«لا ترى الجاهل إلاَّ مفرطاً أو مفرِّطاً»**[٢]. وقوله عليه السلام: **«من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصَّر فيها ظُلم، ولا يستطيع أن يتَّقي الله من خاصم»**[٣]. وقوله عليه السلام: **«الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يُؤيسهمْ من روح الله، ولم يؤْمنهم من مكر الله...»**[٤]. وقوله عليه السلام: **«أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»**[٥].

ولفرط إيمانه بهذا المبدأ دعا أصحابه إلى أن يتعاملوا بمبدأ الاعتدال؛ حتى في حبهم له، فقال عليه السلام: **«وسيهلك فيَّ صنفان: محبٌّ مفرطٌ يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ، ومُبغضٌ مفرطٌ يذهب به البُغض إلى غير الحقّ، وخير الناس منِّي؛ حالاً النمط الأوسط، فالزموه»**[٦].

١٠- مبدأ احترام الإنسان:

المبدأ الأخير الذي يُمكن استخلاصه من أقوال الإمام عليه السلام في النهج، هو: مبدأ احترام الإنسان.

ويتمثَّل هذا المبدأ في احترام الإمام عليه السلام لإنسانيَّة الإنسان؛ بصرف النظر عن جنسه، أو عرقه، أو دينه، أو طبقته الاجتماعيَّة.

وإن كان هذا المبدأ يتجلَّى بوضوح في الإشادات الأخلاقية العامَّة التي امتلأت بها صفحات النهج، والتي لم يفرِّق فيها الإمام عليه السلام بين غنيّ وفقير، أو عربيّ وأعجميّ، أو مسلم وغير مسلم؛ إلاَّ أنَّه يتأكَّد بشكل قاطع من خلال ما دعا إليه الإمام عليه السلام من أخلاقيَّات

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٦، ص١٠٥.
(٢) م.ن، ح٧٠، ص٦٧٦.
(٣) م.ن، ح٣٠٠، ص٧٣٢.
(٤) م.ن، ح٩٠، ص٦٨٠.
(٥) م.ن، ح٢٧٠، ص ٧٢٤.
(٦) م.ن، خ١٢٧، ص٢٩٩.

الحكم وأخلاقيَّات الحرب. وليس أدلُّ على ذلك من قوله عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «**وأشعر قلبك الرحمة للرعيَّة، والمحبَّة لهم، واللطف بهم...فإنَّهم صنفان: إمَّا أخٌ لك في الدِين، وإمَّا نظيرٌ لكَ في الخَلق...**»(١). وقوله عليه السلام له في موضع آخر: «**واجعل لذوي الحاجات منك قِسْماً تُفرِّغ لهم من شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً... حتى يكلّمك متكلِّمهم غير متتعتع، فإنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: لن تقدَّس أمَّةٌ لا يُؤخذ للضعيف حقَّه من القويّ غير متتعتع**»(٢). أو كدعوته لعشيرته بعد ضربة ابن ملجم(٣) القاتلة له: «**يا بني عبد المطلب، لا ألفينَّكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً؛ تقولون قُتل أمير المؤمنين، ألا لا تَقتُلُنَّ بي إلاَّ قاتلي. انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه؛ فاضربوه ضربةً بضربة، ولا يُمَثَّل بالرجل؛ فإنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيَّاكم والمُثلة، ولو بالكلب العقور**»(٤).

وتاكيداً على هذا المبدأ هاجم الإمام العصبيَّة، وحميَّة الجاهليَّة، وردَّ جذورها إلى الشيطان، حيث أخذته العصبيَّة؛ فتباهى على آدم عليه السلام واستكبر عليه؛ فيقول عليه السلام في إحدى خطبه، وتُسمّى بالخطبة القاصعة(٥): «**فاطفئوا ما من في قلوبكم من نيران العصبيَّة وأحقاد الجاهليَّة، فإنّما تلك الحميَّة تكون في المسلم من خطرات الشيّطان ونخواته ونفثاته...**»(٦).

ومن أهم انعكاسات هذا المبدأ اعتقاد الإمام عليه السلام بأنَّ التربية والتعليم حقّ لجميع الناس: «**فأمَّا حقّكم عليَّ بالنصيحة لكم، وتوفير**

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٥٣، ص٦٠٥.
(٢) م.ن، ك٥٣، ص٦٢٢.
(٣) هو عبد الله بن ملجم، قاتلُ الإمام علي عليه السلام.
(٤) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، ك٤٧، ص٥٩٨.
(٥) سُميِّت كذلك؛ لأنّ الإمام عليه السلام حقَّر فيها حال المستكبرين.
(٦) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ١٩٢، ص٤٢٧.

فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا...»[١]. وفي كتاب له إلى قثم بن العبَّاس، وهو عامله على مكَّه، يقول له: «**علِّم الجاهل وذاكر العالم**»[٢].

وفي الختام تجدر الإشارة إلى وجود مبادىء وقيم تربوية أخرى في نهج البلاغة تعنى بتربية الفرد والأسرة والمجتمع في شتى المجالات التي تحتاجها البشرية لتحقيق صلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

(١) عبده، شرح نهج البلاغة، م.س، خ٣٤، ص١٣٨.
(٢) م.ن، ك٦٧، ص٦٤٧.